الفصل الرابع

العصر الاسلامى

من واد غير ذى زرع بدأ الاسلام يغمر الكون هاديا العالمين · والصحراء أرض حل وترحال تجوبها قبائل بدوية ، والبعض يستقر حيث تصح الحياة ··· وجبال ووديان ورمال صفراء وكثبان وخيام وجماد وسماء قلما عرفت السحب · وكثيرا ما أريقت الدماء على الرمال ، فالقبائل تتناحر ، وتتفاخر بالأنساب ، وتمدح وتهجو ··

حقا لم تكن شبه الجزيرة وحدة سياسية ، ولكن كانت وحدة للغـــة والاهتمام بالشعر وقوافيه وأوزانه ، حتى أن العرب أنزلوا الشعراء بينهم منزلة حسنة ، وقد تخيرت القبائل أرجح رجالاتها عقلا وأعلا حكمة ليكونوا شيوخا فيها يحكمون بين الناس · وترابطت القبائل فيما بينهـــا بروابط التجارة والأسواق الأدبية ، حتى أنه يقال أن قصائد الشعراء الساحرة كانت تنزل فى أول الأمر منزلة وحى الكهان ثم كانت القبائل ترفع السيوف بعد سلام سعيا وراء خير أو ردا لاهانة ·

ثم جاء الاسلام ، ونزلت أول آية على محمد بن عبد الله وهو يتعبد فى غار حراء : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق · اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » · ثم بدأ الاسلام ينتشر فى ربوع شبه الجزيرة · وتحمل عليه السلام وصحابته الأذى والألم حتى كتب الله لهم نصرا مبينا ·

واستطاع النبى (صلى الله عليه وسلم) ومن بعده الخلفاء الراشدون « أن يبعثوا فى نفوس أبناء الصحراء الأحرار ، وفى نفوس من هم أكثر منهم تحضرا من أهل البلاد الواقعة فى الأطراف روح الاتحاد فى العمل ، والى هذا البعث يرجع الفضل فى المكانة التى يتبوؤها الاسلام كدين عالمى · ولقد صدق الله المسلمين وعده بالنصر ، وكانما كان تأييده لهم اجابة لندائهم عند لقاء الأعداء : « الله أكبر » · ثم فتح العرب بلاد الفرس كلها ، وانتزعوا من

الامبراطورية الرومانية الشرقيـــة أحسن ولايتين فيها ، وهمـــا : الشام ومصر »(١) :

وخلف النبى عليه الســـلام الخلفـــاء الراشدون (١١ ـ ٤٠ هـ = ٦٣٢ ـ ٦٦١ م) أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ثم غلب على ، وفاز معـــاوية ابن أبى سفيان والى الشام على ولدى على بن أبى طالب · وفرت فلولهما باذرة بذور حزب الشيعة · وأسس معاوية الدولة الأموية متخذا عاصمته دمشق (٤٠ ـ ١٣٢ هـ = ٦٦١ ـ ٧٥٠ م) وابان حكم الأمويين رفرفت الـــوية المسلمين على رقعة من الأرض تمتد من المحيط الأطلسى غربا الى ما وراء حدود الهند والتركستان ، شرقا ، ثم الى بلاد القـوقاز وأســـوار القسطنطينية شمالا · وسادت اللغة العربية فأصبحت لغة الدين والدولة والشعر والعلم· وأصبح تولى المناصب العليا من حق العرب ، فهم يديرون الدولة ويتولون قيادة الجيش ، أما حملة العلم والفن فكان غالبيتهم من غير العرب · وابان الدولة الأموية ازدهرت البصرة والكوفة كمركز للثقافة حيث كان يلتقى فيها عرب وفرس ونصارى ومسلمون ويهود ومجوس ولعل هذه اللقاءات بين أقوام من شعوب مختلفة ولغات متعددة وثقافات متنوعة كانت بداية لعصر من التقدم العلمى فى وقت كانت فيه أوربا تغط فى نوم من الجهالة يزداد عمقا ، سنة بعد أخرى ·

وخلفت دولة بنى أمية الدولة العباسية (١٣٢ ـ ٦٥٦ هـ = ٧٥٠ ـ ١٢٥٨ م) ، وأطلق على فترات منها بالعصور الذهبية · وقد بنى المنصور ، ثانى خلفاء العباسيين بغداد عام ١٤٥ هـ ـ ٦٧٢ م ، وخلفه هارون الرشيد ثم المأمون · وتألقت بغداد وأصبحت كعبة العلم والفن والأدب ، وصبت فيها أنهار الذهب من أرجاء الامبراطورية المترامية ، ولم يبخل الخلفاء على النهضة العلمية فقدموا للبشرية ما حقق لها التقدم الى الامام مستغلة التراث القديم ومجددة ومبتكرة ومهيئة للمستقبل ·

ثم بدأ الوهن يتطرق الى الدولة المتماسكة ، فاستقلت بعض أجزائها ، فكانت هناك دولة بنى أمية فى الأندلس ، ودولتا الطولونيين والفاطميين فى مصر ، وأقام بنو حمدان ملكا فى الشام والجزيرة ، كما قام الظاهريون فى المشرق · وبدأت مدن أخرى تشع الثقافة ، ففى الأندلس قامت مراكـــز علمية ، وفى القاهرة أنشئت جامعة باقية الى اليوم : الأزهر ·

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٠ ·

اولا : التربية والتعليم فى الثقافة الاسلامية

عاش العرب فى الجاهلية خاضعين للخرافات والأوهام ، عبدوا الأصنام ووكلوا اليها كل أمورهم · كما لجأوا الى الكهانة والعرافة لفض نزاعاتهم ·

ويلوح أن القراءة لم تكن منتشرة فى بلاد العرب قبل ظهور الاسلام ، ولذلك نجد القرآن الكريم قد حث الناس على القراءة وطلب العلم ، فقد نوه فى مواطن كثيرة بمنزلة العلماء الرفيعة وأهمية العلم وطلبه ، فيقول الله تعالى : « هل يستوى الذين يعملون والذين لا يعملون » وقال تعالى « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » وقال تعالى « وقل رب زدنى علما » · ومن أحاديث النبى عليه الصلاة والسلام « يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء » ، وقوله « أطلبوا العلم ولو فى الصين » ، وقوله أيضا « لا خير فيمن كان من أمتى ليس بعالم ولا متعلم » وقوله كذلك « أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد » ·

كما أن الاسلام فى حرصه على التعليم لم يفرق بين الأبناء والبنات ، قال النبى عليه الصلاة والسلام « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » · وروى أن الرسول عليه السلام كان يطلق سراح الأسير المتعلم من الكفار اذا علم عشرة من المسلمين الأميين القراءة والكتابة · ويذكر عن الرسول عليه السلام انه حث بعض أصحابه على تعلم لغة الى جانب العربية · واذا كان العلم والتعلم قد حظى فى سنى الاسلام المتقدمة بهذه المكانة الرفيعة على يد النبى عليه السلام وصحابته وخلفائه ، فانه قد وجد عند خلفاء الأمويين العباسيين استجابة لم تقتصر آثارها على المسلمين فحسب ، بل كانت لها أصداء عميقة الأثر فى العالم فيما بعد ·

على أن التعليم فى هذا الوقت المبكر من تاريخ الاسلام قد اهتم قبل كل شىء بالقراءة والكتابة · ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أرسل الى الولاة من المسلمين قائلا : « أما بعد فعلموا أولادكم السباحة والفروسية ورووهم ما سار من المثل وحسن من الشعر » · وباتساع الأمصار الاسلامية وانتشارها بدأت تباشير نهضة تعليمية دعامتها فى بداية الأمر العلوم الدينية مثل القرآن والتفسير ورواية الحديث ثم استنباط الأحكام الفكرية والفتاوى الشرعية ويغلب على الظن أن بداية الاهتمام بالعلوم العقلية أو الكونية كالطب والفلسفة والرياضيات كان فى عهد العباسيين · فلم يعرف عن الأمويين اهتمام بمثل هذه العلوم ، اذ يذكر ابن خلدون فى مقدمته عن أصناف العلوم

التى كان المسلمون يتناولونها فى مجالسهم العلمية فى صدر الاسلام وزمن حكم بنى أمية فيقول أنهم اهتموا بالعلوم النقلية ، وهى التى تتصل بالقرآن الكريم وهى التفسير والقراءات والحديث وأصول الفقه ، كما اهتموا بالعلوم اللسانية كعلم اللغة وعلم النحو وعلم البيان والأدب ٠

ويلوح أن العلوم العقلية كانت قليلة أيام الأمويين ، وكانت العلوم النقلية نواتها القرآن والحديث فمنها يستنبط الفقه ولأجلها يروى الشعراء وتبحث مسائل النحو ٠ أما فى العصر العباسى فقد وجدت نواة الطب ، « فقد أسس النساطرة بمعاونة اليهود مدرسة للطب بجنديسابور ، وأيدهم الخلفاء العباسيون ، وقد كانت هذه المدرسة الطبية وارثة الطب اليونانى والفلسفة اليونانية فى الشرق ٠ وحول هذه الدراسة الطبية تكونت دراسة الطبيعة والكيمياء والهيئة بل والمنطق والالهيات ، وكانت الثقافة الطبية تتطلب كل هذه الفروع ، وبرنامجها يسع كل هذه الأشياء ، كما نلاحظ هذا حتى فى فلاسفة المسلمين أمثال الفارابى وابن سينا ، فكلاهما طبيب فيلسوف ٠٠٠ من أجل هذا نرى نوعين من الدراسة فى هذا العصر ، دراسة دينية حول القرآن والحديث ، ودراسة دنيوية حول الطب ، ولكل نوع مميزات خاصة ومنهج فى البحث خاص وان أثر كل منهما فى الآخر وتأثر به(١) ٠

ويعلل ابن خلدون ازدهار العلم فى العصر العباسى بما تمتع به العباسيون من سعة فى الدخل وترف أعطى الفرصة للجودة والكثرة ، فبعد أن كفى القوم أنفسهم من الضروريات وما زال لديهم فائض من الرزق ، اتجهوا الى التجديد والتحسين فى صناعاتهم والى الأغداق على محبى العلم والعلماء ٠ ولعل من أسباب التقدم العلمى فى العصر العباسى عنه أيام الأمويين والخلفاء الراشدين ـ أن الدولة الاسلامية تمكن لها فى الأرض استقرار متخذة بغداد عاصمة ، وهى متاخمة لبلاد فارس ذات الحضارة القديمة العتيدة ٠ وقد نزح اليها وعاش فيها فرس شجعهم الخلفاء على العلم، بل انالولاة المسلمين فى الأرض التى كانت مهدا للاحتلال الرومانى لم يبخلوا على العلماء بمنحهم ، بل ان لهؤلاء الحرية التى يعشقها محب العلم ، وقيل أن ضعف معدة أبى جعفر المنصور جعله يهتم كثيرا بالطب والبحث فيه فاستدعى أطباء مختلفين فى مللهم ونحلهم ، كما اهتم بالتنجيم لاعتقاده أن هناك صلة بين حركات النجوم وما يدور على الأرض(٢) ٠

---

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام ـ الجزء الثانى ، ص ١١ ـ ١٢ ٠

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥ ٠

وقد أثر انتشار العلوم العقلية على المجتمع الاسلامى والتربية فيه من زاويتين :

١ ـ طريقة البحث : فعلماء العلوم النقلية اعتمدوا على الرواية وصحة السند ، فهم يجمعون ما قاله السابقون ، وقد يرجحون قولا على قـــول ، ويكاد يقتصر عملهم على التحقق من صحة النقل · ولم يحكموا كثيرا مقياس العقل ، بل كانوا لا يقبلون نقدا ولا يطيقون محاجة بالمنطق ، أما أصحاب العلوم العقلية من دارسى الطب والرياضة والطبيعة ، فقد ركنوا الى معقولية الحقائق وامتحانها · متخذين اما سبيل المنطق واما التجريب العملى · فهم يحكمون بالصواب أو الخطأ بعد فحص وتمحيص لا استنادا على اسم القائل أو المصدر ، ولعل اختلاف طريقة البحث لم تقتصر على مجرد أسلوب الوصول الى الحقيقة ، بل تعدتها الى عداوة بين النقليين والعقليين ، فالنقليون ـ وأظهر من يمثلهم علماء الحديث ـ يتهمون العقليين بالزندقة والالحاد ، والعقليون ـ وأظهر من يمثلهم علماء الكلام ـ يتهمونالنقليين بالجمود والتزمت ·

٢ ـ مع اتساع العلوم العقلية فى العصر العباسى وتشجيع الخلفـــاء للعلم والمتعلمين ، لم يعد العلم قاصرا على الأمور التى احتكرها رجال الدين· فطرق أبوا بالعلم وخاصة ـ فى العلوم العقلية التى تكونت حول الطب ـ أفراد كانت صلاتهم بالدين والتعمق فيه خفيفة · وجذبت هذه العلوم العقلية الكثيرين الذين عملوا على التنقيب فى أعماق الثقافات المختلفة والتمتـــع بكنوزها ، وكانت أسباب الاستقرار السياسى والرغد الاقتصادى مهيئة لهم كل الفرص الممكنة ·

ومما هو جدير بالذكر أن اتساع صناعة الورق فى ذلك الوقت كانت من العوامل التى آزرت هذه النهضة العلمية(١) · فكان العرب قبل الاسلام وفى صدره يكتبون على الورق ، وهو جلد جفف ثم رق ، وفى اللخاف وهى حجارة بيض رقاق ، وكذلك فى عسف النخل ، وهو الجريد الذى لا خوص عليه ، ويكتبون أيضا فى أعظم أكتاف الابل والغنم · كما استخدم العرب القرطاس وهو ورق مصنوع من بردى مصر وانتشر فى ربوع الدولة الاسلامية المترامية · كما نشأت صناعة « الوراقة » التى كان أصحابها يقومون بنسخ الكتب وتصحيحها وتجليدها وقد ساعدت على انتشار الثقافة ·

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠ ـ ٢١ ·

واذا كانت المصادر التاريخية تحدثنا عن حرية عند العلماء فهى أيضا تلقى أضواء كثيرة على اتجاهات القصور نحو توجيـــه بعض العلوم نقلية وعقلية · فقد أثرت الهيئات الحاكمة على العلم تأثيرا كبيرا ، ولعل الموقف السياسى الداخلى كان يدفع الحكام الى سلوك معين فقد قامت الدولة العباسية على أنقاض دولة بنى أمية وكانت لها عظمة ليس من السهل اخلاء عقـــول الناس منها ، كما أن هناك الشيعة الذين يرون أن أحق الناس بالخلافة هم آل أبى طالب ، وأن آل العباس اغتصبوا الخلافة منهم هذا الى جانب مذاهب دينية فى الظاهر وسياسية فى الباطن كالخوارج والمرجئة ·

والذى لا شك فيه باجماع المؤرخين أن حركة الترجمة بلغت ذروتها فى العصر العباسى ، كما أن التقدم العلمى سار بخطى سريعة ومطردة · وقد عمد بعض المؤرخين الغربيين أن يغضوا من قدر العرب وانتاجهم فى عالم الفكر ، فادعوا أن ما جاء به العرب لم يكن فيه شىء مبتكر · ولم يكن العرب الا مقلدين · واذا سلمنا بأنه لا يكون ابتكار مخلوق من العدم فحرى بنا أن ننظر الى مجهودات العرب نظرة عادلة · فلم يكتف العرب بنقـــل الفلسفة القديمة من اليونانية الى العربية فقط ، بل درسوا هذه الفلسفة وشرحوها · ثم هم أولئك الذين ثقفوا العالم الحديث بنتاج العالم القديم(١) · كما أنهم مزجوا بين الأراء اليونانية والآراء الهندية فى الرياضيات ، وعلى أرضهم صار النقاش والكتابة عن الشرق وانتاجه الفكرى والغرب وما قدمه للبشرية · وبفضل العرب عرف الأوربيون ما خلفه الاغـــريق والهنـــود والصينيون · وفتحوا أمام التفكير الأوربى آفاقا جديدة وأيقظوا العقل الغربى ليبدأ البحث ، وهزوه من استسلامه الفكرى ليبدأ يناقش أمورا لم يشك فيها ولا فى صحتها ، وكان نتيجة اللقاح الفكرى على يد العرب أن بدأت المدنية سيرها الحثيث نحو التقدم ·

ويتحمس الدكتور فروخ(٢) لعبقرية العـــرب وأسسها ، فيتكلم عن الحرية العلمية قائلا : انه بينما كان الخلفاء الراشدون والأمويون والعباسيون يجادلون الخوارج والنصارى واليهود والصابئة والمجوس بالتى هى أحسن ، ويعقدون لهم المجالس للمناظرة ويدرون عليهم الأرزاق ، ويفتحون لهم أبواب معاهد العلم بينما كان هؤلاء يقفون هذا الموقف ، كان الذى يجسر على تبيان

---

(١) عمر فروخ : عبقرية العرب فى العلم والفلسفة ، ص ١٥ ·
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٠ ·

فضل العقل فى أوربا يربط الى سارية مركوزة فى نار متأججة · أو تشد أطرافه الأربعة الى أربعة جياد ينهال عليها الموكلون بها ضربا بالسياط ·

معاهد التعليم :

يقسم الدكتور أحمد شلبى(٢) أمكنة التعليم فى التربية الاسلامية الى حقبتين : الأولى قبل انتشار المدارس ، والثانية بعد انتشارها · والحد الفاصل بينهما هو عام ٤٥٩ هـ - وفيه افتتحت فى بغداد أول مدرسة من عديد من المدارس المنظمة التى أنشأها الوزير السلجوقى العظيم فى نظام الملك · فقبل انتشار المدارس تعلم المسلمون فى :

١ - الكتاب :وقد عرف فى بلاد العرب قبل ظهور الاسلام ، وكان لتعليم القراءة والكتابة · ويروى أن عدد القرشيين الذين كانوا يقراون ويكتبون عندما جاء الاسلام لم يتجاوز سبعة عشر رجلا فقط · ويلوح أنه كان هناك نوعان من الكتاتيب ، نوع يتعلم فيه الصبيان القراءة والكتابة ، وكان يقوم بالتعليم فيه بعض الذميين أحياناً كثيرة ، ولم يجلس لتعلم القراءة والكتابة من المسلمين فى صدر الاسلام الا عدد قليل جدا · والنوع الثانى كان مكانا يتعلم فيه صبية الكتاب القرآن الكريم والدين وأصبح يطلق على المكان الذى يتعلم فيه الصبيان القراءة والكتابة ، أو القرآن والدين اسم « الكتاب » · على أن الظاهر من الشواهد التاريخية أن كتاتيب حفظ القرآن لم تظهر فى العهد المبكر للاسلام ، فقد كان الأطفال يندسون بين الكبار فى مجالسهم وحلقاتهم بالمساجد ، وتلقى بعضهم القرآن من آبائهم وذويهم أو من مدرسين خصوصيين · ولم تكن الكتاتيب فى المساجد ، فقد نص على أنه : « لا يجوز تعليم الأطفال فى المسجد لأن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بتنزيه المساجد من الصبيان والمجانين لأنهم يسودون حيطانها ولا يتحرزون من النجاسات ، بل يتخذون للتعليم حوانيت فى الدروب وأطراف السوق »· وقد لجأ بعض المدرسين - برغم هذه التحذيرات - الى اتخاذ زاوية من المساجد يعلمون بها ، أو غرفا ملحقة بالمساجد ·

واختلف حجم الكتاب من حجرة واحدة الى مكان معتسع فيروى ياقوت فى (معجم الأدباء) أن كتاب أبى قاسم البلخى كان به ٣٠٠٠ تلميذ وكان فسيحا جدا يتسع لهذا العدد ، ولهذا احتاج البلخى ان يركب حمارا ليتردد بين هؤلاء وأولئك ويشرف على جميع تلاميذه ·

---

(٢) أحمد شلبى : تاريخ التربية الاسلامية ، ص ١٩ وما بعدها ·

ويذكر ابن خلدون في مقدمته(١) « أن ما درسه الولدان اختلف من قطر اسلامي لقطر آخر ، ولكن يلوح أن الدراسة اشتملت على القرآن وأحاديث الأخبار ، وبعض الأحكام الدينية ، والشعر ، ومبادىء الحساب ، وبعض من قواعد اللغة العربية ، هذا الى جانب تعلم القراءة والكتابة والخط الذى كانله مدرسون مختصون • واستعمل الصبية الألواح فى الكتابة » •

٢ ـ القصور : وكان الخلفاء والأمراء والأغنياء يتخذون لأولادهم معلمين خاصين يذهبون الى القصور ويجلس الأولاد اليهم يتلقون منهم قدرا من الثقافة والمعرفة • وكان الوالد يشترط فى تخطيط وتحديد ما يتعلمه ابنه من معلمه الخاص ، وقد أطلق على هذا المعلم اسم « مؤدب » وكان بعضهم يقيم فى القصور حيث أعد جناح للاقامة حتى يتم اشرافهم على تربية الولد •

٣ ـ المسجد : لم يختلف المسلمون عن غيرهم فى الباعث على انشاء المساجد ، فقد أقامها الناس لأغراض دينية ، لهذا استعملوا أماكن العبادة كالكنائس والأديرة والهياكل والمعابد للتدريس ، كما قام رجال الدين بتعليم الأولاد • وهذا ما فعله المسلمون ، فلم يكن المسجد مكانا للعبادة فحسب ، بل كان محكمة للتقاضى ومكانا للدراسة ، بل كان أيضا ميدانا لاجتماع الجيش الباسل ، ودارا لاستقبال السفراء وقد سمى المسجد « بيت الله » فلا يحتاج الداخل الى استئناس ولا الى الاستئذان للدخول سواء كان ذلك للدراسة أو للتعبد •

والمسجد الحرام هو أول بيت أسس للناس والى الكعبة يتجه المسلمون فى مختلف أنحاء الأرض • وبعد أن هاجر المسلمون من مكة وخرج الرسول الى المدينة أقام فى قباء منزلا هو أول مسجد أسس فى الاسلام ، ثم بنى الرسول عليه السلام أثر دخوله المدينة مسجده بالمدينة وكان يجلس فيه يعلم أصحابه دينهم ودنياهم •

وبدأ المسلمون يبنون فى كل مدينة مسجدا(٢) وعلت المآذن فى مختلف الأرض ، فى المدن والقرى • ولعل أول جامع بنى في مصر هو جامع عمرو بن العاص الذى بنى فى الحادى والثلاثين من الهجرة بأمر من عمر بن

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٣٩٧ ـ ٣٩٨ •

(٢) محمد عطية الابراشى : التربية الاسلامية ، ص ٥ •

الخطاب بعد فتح مصر · وظل هذا المسجد ينمو حتى أصبح مركزا للثقافة ومحكمة للقضاء · وكان به أكثر من أربعين حلقة دراسية للتعليم يؤمهـــا الطلبة للدراسة والبحث ، ومنها حلقة الامام الشافعى ثم أسس أحمد بن طولون جامعه بالقطائع عام ٢٦٥ هـ · وجاء هذا الجامع بعد جامع العسكر شمال الفسطاط ، وانتقلت صلاة الجمعة من العسكر الى جامع ابن طولون · وفى سنة ٩٧٢ بنى جوهر الصقلى الجامع الأزهر الذى أصبح من الجامعـــات الأولى فى العالم الاسلامى ·

ولعب الأزهر دورا كبيرا فى الدعوة للشيعة ، وكانمركز الاشعاع الدينى ، وظل الأزهر من سنة الانتهاء من بنائه (٣٦١ هـ) الى اليوم يؤدى دوره فى الدعوة الاسلامية · وسمى بالأزهر لأنه أحاطت به القصور الزاهرة، أو كما يقول البعض لما تنبىء له من ازدهار ورقى ، ويرجع أنه سمى بالأزهر تيمنا باسم فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ·

وعرف أن الدراسة بالمساجد تقسم الى ثلاثة مراحل ، مرحلة ابتدائية لحفظ القرآن الكريم ودراسة فوق ما درس فى الكتاتيب ، ثم مرحلة (ثانوية) تتسع فيها الدراسة على أيدى مدرسين أكبر علما ، ثم مرحلة (عالية) أو (نهائية) تدرس فيها أمهات الكتب على يد طائفة من الجهابذة · وكان الطالب هو الذى ينقل نفسه من مرحلة الى أخرى · ولم يكن هناك حـــد للسن أو البقاء فى مرحلة دراســـية · وغلبت العلوم الشرعية عـــلى الدراسات فى المساجد ، ودرست فيها أيضا العلوم اللسانية من نحو وصرف وبلاغة ، وكذلك الجغرافيا والرياضة والمنطق والفلسفة والمنطق والطب ، ولكن الغالب أنالطب كان يدرس بدار العلم على نطاق أوسع أو بالمارستانات أو على أيدى معلمين خاصين ·

ومنذ أن جلس النبى عليه السلام فى المسجد معلما ، صار التقليد أن يجلس العلماء وحولهم المستمعون ، وهذا هو نظام الحلقات الذى انتشر فى ربوع العالم الاسلامى ، فكان العالم يجلس الى أحد الأعمدة فى الجامع متكئا عليه بظهره ومتجها الى القبلة وحوله الطلبة فى حلقة · وكان لكل عالم عامود يعرف به ، ومن حقه أن يجلس اليه · وكان العالم أو الشيخ يبدأ الدرس بالبسملة والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم يقرر الدرس بالدقة وثم يختمه بقراءة الفاتحة ·

وكانت أساليب التدريس تتلخص فى الامـــلاء والشرح والمناقشة ،

فالأستاذ يملى ما لديه ويشرح ما يصعب على الطلبة فهمه ، ويسمح لهم أثناء الاملاء أو الشرح بالمناقشة فيما يعن لهم(١) . والغالب أنه كانت تخصص ساعات البكور - والذهن فى نشاطه - لدراسة العلوم (النقلية) كالتفسير والحديث والفقه والنحو والصرف وغيرها . أما بعد الظهر ، فكان يخصص للعلوم التى تستند الى العقل . أما المساء فقد جعل للاستذكار والحوار والتأمل وكان للطالب أن ينتقل من حلقة الى أخرى حسبما يسمح نشاطه وعلى أساس عدد العلوم التى يرغب فى دراستها . ويرجع البعض أن الدراسة فى المسجد كانت تتطلب اثنتى عشر سنة ، وان كان التحديد الزمنى لا حدود له .

وكان الأستاذ أو الشيخ هو الذى يحدد ويأذن للدارس على يديه بالتدريس أو الرواية أو الانتهاء ، وكان هذا يتم بعد أن يقرأ الطالب على عدة أساتذة عددا من الكتب ، لكل أستاذ كتاب فى فرعه وتخصصه .

ولم يكن الطلبة يدفعون أجورا نظير تعلمهم فى المساجد بل كانت ترتب لهم ولأساتذتهم غالبا أرزاق وأعطية تكفى للانفاق عليهم فى حياتهم الخاصة . ولعل هذا الأمن الاقتصادى كان حافزا للطلاب على التعلم سواء من أهل مصر أو من الأمصار الاسلامية . كما شجع على ذلك مكانة العلماء الذين كانوا يعلمون فى الجوامع والمساجد الكبيرة ، حتى قيل أن هؤلاء كانوا يستأذنون الخليفة فى القيام بالتدريس ، بل ان الخلفاء أنفسهم كثيرا ما عينوا أساتذة بالجامع الأزهر .

٤ - حوانيت الوراقين : مع انتشار الورق من منتجات مصر فى ربوع الدولة الاسلامية كثرت الكتب وتفنن العرب فى تجليدها وتجميعها ، وظهرت مكتبات وحوانيت لم تقتصر على بيع الكتب والتجارة ، بل كانت أمكنة يجتمع فيها الأدباء والمتكلمون .. وتتحول مناقشاتهم الى ندوات ومناظرات ، وغالبا ما كان أصحاب هذه الحوانيت من المهتمين بالأدب والعلم والدين ، ومنهم من تفقهوا فكانوا يجذبون اليهم محبى العلم والمعرفة ويذكر الجاحظ كان يبيت بهذه الحوانيت للقراءة والاطلاع والبحث .

٥ - منازل العلماء : اتخذ رسول الله عليه الصلاة والسلام دار الأرقم ابن أبى الأرقم مكانا يعلم فيه المسلمين تعاليم ومبادىء الدين الجديد ، ويقرئهم

---

(١) خطاب عطية : التعليم فى مصر فى العصر الفاطمى الأول ، ص ١٣٤ - ١٣٥ .

ما نزل من آيات الذكر الحكيم ، كما كان المنزل ملتقى الذين يتخيرون الاسلام دينا فيأتون اليه ناشدين الاسلام • ثم أقيمت المساجد وأصبحت مكان اللقاء والاجتماع • على أن بيوتا كثيرة فى التاريخ الاســـلامى لعبت دور المدارس كمنزل الرئيس ابن سينا حيث كان يجلس الى طلبته محبى علمه الغزير ليلا• كما كان الامام الغزالى يستقبل تلاميذه بداره بعد أن استقال من العمـــل بنظامية نيسابور •

المدارس :

حفلت المساجد بحلقات الدرس والمناقشة كما أسلفت القول ، مما كان يؤذى بعض المصلين الذين تطرق آذانهم أصوات المناقشات العالية الحـامية الوطيس • ومع اتساع رقعة العلم كان لابد من تخصيص أمكنة ملائمة يجد فيها المعلمون مجالات أوسع للنقاش والبحث والمجادلة • بل ان المعلمين نفسهم الذين شغلوا بالتعليم جل وقتهم حاولوا الارتزاق باحتراف حرفة سيطة ، ولما فشلوا تطلعوا الى المدارس عسى أن يكون وجودها ضامنا لهم ى جرايات تقوم بحاجتهم(١) •

وتختلف المدارس عن المساجد ، ففى كـــل مدرسة ايوان وهو يقابل اعة المحاضرات اليوم ، ويلحق بالمدرسة مساكن للطلبة ومرافق اخـــرى قاعة للطعام •

وتختلف المـــدارس عن المساجد ، ففى كل مدرسة ايوان وهو يقابل لا فى نهاية القرن الرابع الهجرى ، وأن أهل نيسابور هم أول من بنـــوا مدرسة فى الاسلام وسموها المدرسة البيهقية ، والظاهر أنه كان لكل مدرسة وقاف يصرف منها على الأساتذة والطلبة ، والدين هو الغالب على مناهج المدارس ، بل كانت كل مدرسة تدرس على مذهب من المذاهب الأربعة : بى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل • وكانت الظروف السياسية تدعو الى ذلك ، فقد قامت على أنقاض البويهيين والفاطميين (وهما من أنصـــار الشيعة) دولتا السلاجقة والأيوبيين وهم من أهل السنة • ولـــذلك أقام السلاجقة والأيوبيين مدارس لتقاوم ما غرسه أهـــل الشيعة من عقـــاعد يرفضها أهل السنة فأقام السلاجقة مدارس بالعراق واقتفى أثرهم الشاهات

---

(١) Khuda Bukhsh : Islamic Civilization, p. 285.

فى : أحمد شلبى ، المرجع السابق ، ص ٩٧ •

والأتابك الذين أقاموا امارات على أنقاض السلاجقة ، ولما آل الأمر الى نور الدين زنكى فى سوريا ومصر أنشأ بهما المدارس ، كما اتجه الأيوبيون فى مصر الى عقول الناس لغرس المذهب السنى ، فأقاموا عديدا من المدارس ٠

وأهم المدارس التى ظهرت فى التاريخ الاسلامى :

١ ـ المدرسة النظامية ببغداد : يذكر السبكى أن نظام الملك (وكان الوزير نظام الملك هو السلطان الحقيقى للدولة الأولى للسلاجقة) أنشأ مدارس عظيمة فى عديد من البلاد منها بغداد وبلخ وأصفهان والبصرة والموصل ٠ على أن نظامية بغداد كانت أولى وأهم المدارس النظامية ، وقد أنشئت عام ٤٥٧ هـ ٠ وقد تم بناؤها فى سنتين ٠

٢ ـ المدرسة النورية الكبرى : وهى فى دمشق ، وتنسب الى نور الدين محمود زنكى الذى بناها سنة ٥٦٣ هـ على مساحة حوالى ١٥٠٠ متر مربع ٠ وهذه المدرسة ما زالت باقية الآن بحيى الخياطين بدمشق ، وبابها الحالى هو بابها القديم(١) ٠

٣ ـ المدرسة الناصرية بالقاهرة : ولم تنشأ مدارس نظامية بالقاهرة الا فى عهد الأيوبيين ٠ أما المدرسة الناصرية ، فقد بدأ بناءها السلطان العادل زين الدين كتبغا المنصورى ، وأتمها السلطان محمد بن قلاوون سنة ٧٠٣ ٠ وقد وصفها المقريزى بأنها من أجمل مبانى القاهرة وبأنها من أعجب ما عملته أيدى بنى آدم(٢) ٠

المكتبات :

روى المؤرخون عن مكتبات فى معظم المساجد والجوامع والمدارس ودور الحكمة ودور العلم لتكون مرجعا للطلبة والعلماء والنساخ ٠ واذا أخذنا بتقديرات المؤرخين فاننا نعجب للعدد الضخم الذى يسوقه المقريزى عن خزانة الكتب التى ألحقت بالمدرسة الفاضلية ، فهو يقدر الكتب بها بمائة ألف

---

(١) أحمد شلبى : المرجع السابق ، ص ١٠٨ ـ ١١٥ ٠
(٢) محمد عطية الابراشى : المرجع السابق ، ص ٧٣ ٠

كتاب . ويذكر يا قوت أنه كان فى مدينة واحدة من مدن خراسان عشر دور للكتب منظمة وتشمل احداها على ١٢٫٠٠٠ مجلد .

ولعل هذه الأقوال وغيرها تدل على تقدير المسلمين للكتب واعجابهم بها واهتمامهم بالمكتبات واقبالهم عليها وعلى تكوينها . بل وتسابق الخلفاء والأمراء على شراء الكتب ، فيقال ان الحكم صاحب الأندلس كان يبعث فى شراء الكتب الى الأقطار رجالا من التجار ، ويرسل اليهم الأموال لشرائهـــا حتى جلب منها الى الأندلس ما لم يعهدوه . ويروى عنه أنه عندما سمع أن أبا الفرج الأصفهانى كتب كتابه « الأغانى » أرسل اليه ألف دينار ذهبـــا ليبعث اليه بنسخة وصلت الأندلس قبل أن يخرجه الأصفهانى فى العراق . وبلغ اهتمام الناس من غـير المثقفين بالكتب أنه روى عن حـــرص بعض الأندلسيين على اقتناء الكتب بمنازلهم لما تضفيه من جمال على المنزل وكمال واجلال على صاحب الدار .

وقد عنى المسلمون بالمكتبات . وكانت عندهم منها ثلاثة أنواع : مكتبات عامة ومكتبات بين العامة والخاصة ، ومكتبات خاصـــة . أما عن المكتبات العامة فقد كانت فى أبنية جميلة ، حيث كانت تستقبل جمهور المطلعين والباحثين وكان بها حجر متعددة تربط بينهـــا أروقة فسيحة . وثبتت الرفوف بجوار الجدران لتوضع عليها الكتب وقد خصصت الأروقة للاطلاع وبعض الحجرات للنسخ ، والبعض للاجتماعات . وقد أثثت هذه المكتبات بأثاث فخـم وفرشت أرضـــها بالبسط والحصر حيث كان يجلس المطلعون .

وكان يعمل بالمكتبات العامة موظفون يرأسهم الخازن ، وهو أمـــين المكتبة . وكان من أصحاب العلم والمكانة ، ثم المترجمون ، والنســـاخ ، والمجلدون ، والمناولون وهم الذين يرشدون القراء الى موضع الكتب على الرفوف أو احضار الكتب لهم من أمكنتها الى حجرات المطالعة . وقد أطلق على المناولين اسم الخدم لأنهم يخدمون القراء تمييزا لهم عن الفراشين الذين يقومون على تنظيف فراش وأثاث المكتبة .

وكانت خزانة الحكمة أو بيت الحكمة الذى أسسه هـــارون الرشيد ببغداد من أهم المكتبات العامة . وفيه نسخت كتب كثيرة وترجمت مؤلفات من لغات أجنبية ، ويكفى للدلالة على ازدهار الترجمة أنه كان بهذه المكتبة رئيس للمترجمين ومساعدون له .

وعندما استولى المغول وكبيرهم (هولاكو) على بغداد عام ٦٥٦ هـ ، واعملوا فيها القتل والحرق والسلب ، ذهبت هذه المكتبة الهائلة وضاعت آثارها ٠

ومن المكتابت العامة كذلك ، دار الحكمة بالقاهرة ٠ وقد أمر الحاكم بأمر الله الفاطمى بانشائها سنة ٣٩٥ هـ وأراد لها أن تكون أفضل من بيت الحكمة ببغداد ٠ وقد حملت الكتب الى دار الحكمة من خزائن القصور ومن مصادر متعددة ، فكانت فيها كتب نفيسة ومخطوطات نادرة فى الدين والآداب والعلوم بفروعها المتعددة ٠ كما أمدها الحاكم بأمر الله بكل مستلزمات النساخين من أقلام ومحابر وورق ٠ وأقيم لها قوام وخدم وفراشون وغيرهم٠ وكانت دار الحكمة تزخر دائما بالفقهاء والقراء والنحاة والمنجمين والأطباء ٠ ويذكر أن الحاكم أجرى عليها من الأرازق ما حقق حياة هنيئة للخدام والفراشين ، كما أمر بفتح أبوابها لمن يشاء الاستفادة لما فيها من كنوز علمية سواء فى بطون الكتب أو من المناقشات والمحاورات والمحاضرات ٠

والنوع الثانى من المكتبات يطلق عليه مكتبات بين العامة والخاصة ، لم يسمح بالدخول فيها لكل الناس ، ولم تكن خاصة ، لأن الذين أقاموها لم يقصدوا أن تكون لهم وحدهم ٠ وقد أنشأ هذه المكتبات الخلفاء والملوك والأمراء ، لا لحب فى الاطلاع والتحصيل ولكن تظاهرا أمام الناس ٠ ومن هذه المكتبات مكتبة الناصر لدين الله ومكتبة المعتصم بالله ٠

والنوع الثالث من المكتبات هو المكتبات الخاصة ، وقد أنشأها العلماء والأدباء لاطلاعهم الخاص وقد كثر عدد هذه المكتبات فكان من الصعب أن تجد عالما أو أديبا لا يقتنى فى بيته مكتبة تزخر بالكتب ٠

المعلمون :

هناك مجموعة من الاتجاهات اتبعها المسلمون والعرب عامة فيما يختص بالمعلمين فقد ساد الاعتقاد أن خير العلم ما جاء عن طريق المعلمين والعلماء والاحتكاك بهم ولم يعطوا العلم فى باطن الكتب نفس الأهمية والتأثير كذلك الذى يخرج من أفواه العلماء والأدباء ، كذلك لم يفرق العرب بين المعلم والعالم ، بين العلماء المدرسين والعلماء الذين لم يتخذوا التعليم مهنة لهم ، فيذكر مثلا أن الجاحظ كان معلما لجيله وللأجيال التالية مع أنه لم يتخذ التدريس مهنة له ٠ وقد أدرك العرب ضرورة دراسة المدرس أصول مهنته ، فقد عقد

ابن خلدون فصلا أبان فيه أن التعليم صناعة تحتاج الى دراية وتدريب ومعرفة وتصريف سليم ، فهو يقول(١) : « مما يدل عـــلى أن تعليم العلم صناعة ، اختلاف الاصطلاحات فيه ، فلكل امام من الأئمة المشاهير اصطلاح فى التعليم يختص به شأن الصنائع كلها ، فدل على أن ذلك الاصطلاح ليس من العلم والا لكان واحدا عند جميعهم ... وملازمة المجالس العلمية ، وكثرة الحفظ والعناية بتحصيل العلم ليست جميعها بمانحة ملكة التصرف فى العلم وتعليمه ... ومن أهم ما يلزم فى العلم فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة ، والعمل على تحصيل الملكة التى هى صناعة التعليم ... » .

كما اهتم المسلمون بما بين البيت والمدرسة من علاقات ، فقد جاء فى كتاب مؤلفه مجهول هو « كتاب الارشاد والتعليم » لبعض الرجال الصوفية . جاء فيه « والطفل صورة عائلته ، فكل ما فيها من خير أو شر ، وكل ما سمعه ورآه ينطبع فيه ، ولهذا كان جهد الأمهات من أهم الأمور فى تربية الأبناء : ومن ربى ماله ولم يرب ولده فقد ضيع الولد والثروة ، وتربية الفضـــائل لا يمكن أن تكتسب فى المدارس بل تجب ممارستها مع الطفل من يوم يعى الخطاب ويفهم الكلام ، وأول من يطلب منهم القيام بهذه الوظيفة هم طبعـــا الذين يعاشرون الطفل من نشأته معاشرة مستمرة ، يؤثرون عليه بأعمـــالهم وأقوالهم وسلوكهم ، ثم اذا أضفنا ما تحتاجه هذه التربية من العناء والصبر ، والعقل والحنو والمحبة الخالصة حكمنا بأنها لا تتم الا بواســـطة من أنتجتهم الفطرة الالهية لهذه المأمورية العالية وهم الوالدان »(٢) .

وكان العلماء المعلمون فى صدر الاسلام يؤدون أعمالهم طلبا للثواب من الله فلم تدفع لهم الدولة مرتبات ، وكان من يجد فى نفسه الكفاءة والقدرة على تثقيف غيره يجلس فى المسجد مختارا ويأتيه محبو العلم ، وكان هـــذا المعلم يعلم ما يشاء وفى أى وقت يشاء .

ثم بدأ تدخل الحكومات فى التعليم عندما أقامت معـــاهد خاصة له ، وعينت لها معلمين . ويذكر أنه عندما شيد العباسيون بيت الحكمة عينوا فيه علماء للترجمة والاشراف ، وكانوا يدفعون لهم رواتب سخية ، ومن هنا بدأ الاشراف الفعلى للدولة على ما يعلم فى المعاهد . وبلغ هذا الاشراف أقصـــاه

---

(١) فى فصل « فى أن التعليم من جملة الصنائع » .

(٢) أحمد شلبى : المرجع السابق ، عن كتاب الارشاد والتعليم ، ص ٥٤٢ - ٥٤٣ .

عندما بنى الجامع الأزهر وأصبح معهدا تعليميا لنشر الدعوة الفاطمية والتنديد بخصومهم ولعنهم · أى أن الدولة وضعت منهاج التعليم وأشرفت على تنفيذه اشرافا كاملا ·

واذا كان الفاطميون قد دعوا لمذهبهم عن طريق التعليم ، فقد عمل أهل السنة على محاربة المذهب الشيعى الذى انتشر على يد البويهيين · وكذلك فعل نور الدين فى الشام وصلاح الدين فى مصر ·

وتختلف المصادر التاريخية فى نظرتها للمستوى الاجتماعى للمدرس ، ولكن يلوح أن الاتجاه فى صف تقسيم المدرسين الى ثلاث طوائف :

الأولى : معلمو الكتاتيب : وكان بينهم فقهاء وشعراء وخطباء ، ولكن غالبيتهم كانوا جماعة اندسوا الى مهنة التعليم وهم أبعد ما يكونون عنها ، ويروى أن منهم من امتهن كرامته وحظى بثقافة ضحلة وخلق وضيع حتى قيل فى الأمثال « أحمق من معلم كتاب » ·· وغريب ما يذكره بعض المؤرخين والكتاب مثل ابن حوقل والدينورى والأصفهانى عن الدرك الأسفل الذى انحدر اليه كثير من معلمى الكتاتيب ، ففى باليرمو بجزيرة صقلية لجأ الى هذه المهنة كثيرون ـ حيث أعفى المعلمون من الانخراط فى الجيش ـ من الأغبياء وكريهى المنظر والحمق ومن لا خلق لهم ، ومن عرف عنهم شهادة الزور ، حتى قيل أن قبول شهادة معلمى الكتاتيب كان موضع تردد من القضاة · وقد نرى بعض المبالغة فى هذه الأقوال · ولكن بعض مؤرخى الغرب يرجعون مهانة مكان معلم الكتاتيب الى أنهم كانوا فى أول الأمر من الموالى والذميين ، كما أن العرب تأثروا بالروايات اليونانية الهزيلة التى شخصت المعلم فى صورة مضحكة ·

الثانية ـ المؤدبون : وقد نظر الى تأديب أولاد الخاصة صبيانا كانوا أم كبارا على أنه عمل عظيم يكسب صاحبه فخرا واجلالا ورفعة لشأن المؤدب ·

الثالثة ـ معلمو المساجد والمدارس : وقد سبقت الاشارة اليهم ·

ثانيا ـ من مفكرى التربية الاسلامية

وكأنما اكتفت الدنيا القديمة فى قرونها الأخيرة بعمالقة الفلسفة الثلاثة (سقراط ـ أفلاطون ـ أرسطو) أو كأنما ارتضت المدنية ثمرات ذلك التفكير الناضج ، فلم يهتز الفكر بفلاسفة فطاحل يظهرون بعد أرسطو

الى عدة قرون · والظاهر أن بعض النتاج الاغريقى لم يصل الينا ، على أن ما وصل كان كافيا ليغطى موائد المعرفة الى اليوم ·

وتمضى القرون ، ثم تظهر الدعوة الاسـلامية ، وتعلو المآذن وتنتشر المساجد شرقا وغربا ، ويدخل الناس فى دين الله أفواجا ، ويجد بعض سكان البلاد التى ساد فيها الاسلام طمأنينة وتسامحا لم يعهدوه فى أزمان حكم عرفت فيها الاضطهادات من خالف الملة · وتبدأ كنوز المعرفة الاغريقية تظهر وتعرف وتصل الى أيد أمينة تقدر ما تحويه من نفائس · وقد عرفنا حركة ترجمة وتأليف حمل العرب لواءها ·

وكأنما عجلة الزمن فى دورانها تنقل مركز الثقل الى الشرق الأوسط ليعلو صوته فى العـالمين فى قرون كانت فيهـا أوربا تغط فى نوم عميق سياسيا واقتصاديا وفكريا · وقد نجد خيرا فى الانتقال الى بعض المفكرين من العرب الذين طبق ذكرهم الآفاق ودرست مؤلفاتهم وآراؤهم فى الجامعات الأوربية ·

١ - الغـزالى

هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمـد الغزالى ، قيـل أن أباه كان يشتغل بغزل الصوف ، ومن هنا جاءت التسمية ، وقيل أنه ينسب الى بلد يسمى غزالة ، والغالب أنه ولد فى مدينة طوس من أعمال خراسان ببلاد فارس عام ١٠٥٨ م (٤٥٠ هجرية) ويعتبر الغزالى من أكبر مفكرى الاسلام والمدافعين عنه ، بل من أكثرهم قدرة عـلى الابتكار ، وكان فقيهـا متكلما صوفيا · وقد سمى بحجة الاسلام لأنه رد على الكثيرين من المخالفين ·

فى فلسفة الغزالى الأخلاقية :

ومن كلام الغزالى فى الجزء الثانى من كتابه « احياء علوم الدين » يبدو لنا الفيلسوف الأخلاقى الذى أضاف الى الفلسفة الاغريقية ما نص عليـه الاسلام من معامله بين العبد وربه ، وبين الانسان وأخيه الانسان · وعرض الغزالى هذه العلاقات عرضا مؤسسا على فهم واع بنفسية الخلق ، وعلى ضوء ما خلفه فلاسفة الاغريق من بحوث نفسية واجتماعية وسياسية ·

وفيه تكلم الغزالى عن الخلق فيقول : « ليس الخلق عبارة عن الفعل · فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل اما لفقد المال أو لمانع ، وربما يكون خلقه

البخل وهو يبذل اما لباعث أو لرياء · وليس هو عبارة عن القوة ، لأن نسبة القوة الى الامساك والاعطاء بل الى الضدين واحد · وكل انسان خلق بالفطرة قادرا على الاعطاء والامساك ، وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء · وليس هو عبارة عن المعرفة ، فان المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعا على وجه واحد ·· بل هـــو الهيئة التى تعد النفس لأن يصدر منهـا الامساك والبذل · فالخلق اذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة »(١) ·

ويكتب الغزالى مؤلفا أسماه « كتاب رياض النفس وتهذيب الأخـــلاق ومعالجة أمراض القلب » ·

ويقصد الغزالى بالقلب هنا على حد تعبيره(٢) : « لفظ القلب وهو يطلق لمعنيين أحدهما ·· قطعة لحم لا قدر له ، وهو من عالم الملك والشـــهادة اذ تدركه البهائم بحاسة البصر فضلا عن الآدميين ، والمعنى الثانى هو لطيفـة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسمانى تعلق ، وتلك اللطيفة هى حقيقـة الانسان وهو الجزء المدرك العالم العارف من الانسان ، وهو المخاطب والمعاقب والمطالب · ولها علاقة مع القلب الجسمانى ··· والمقصود أننا اذا أطلقنا لفظ القلب فى هذا الكتاب أردنا به هذه اللطيفة وغرضنا ذكر أوصافها وأحوالها لا ذكر حقيقتها فى ذاتها ، وعلم المعاملة يفتقر الى معرفة صفاتها وأحوالهـــا ولا يفتقر الى ذكر حقيقتها » ·

وفى حديث الغزالى عن الخلق والأخلاق يتحدث عن الفضيلة وأنها العقل المحمود عقلا وشرعا : وللعقل معنيان فى رأيه ··· « أنه قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور ، فيكون عبارة عن صفة العلم الذى محله القلب ، والثانى أنه قد يطلق ويراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب أعنى تلك اللطيفة » · وقد حدد الغزالى ما قصد عنـــدما قال : « العقل المحمود » وأنه الوسط ، والوسط يقع بين طرفين ··· والوسط هو الفضيلة : « والطرفان رذيلتـان مذمومتان » · كما يحدد الغزالى الفضيلة بأنها اعتدال أركان النفس الأربعة وقواها وهى : قوة الغضب وقوة الشهوة وقوة الحكمة وقوة العدل · ويرى أن حسن قوة الشهوة واعتدالها يعبر عنه بالعفة ، واعتدال الغضب شجاعة ، فاذا حادت قوة الغضب عن قوة الاعتدال أصبحت تهورا ، وان مالت الى ناحية مضادة كانت جبنا ، والافراط فى الحكمة خبث فى جانب وبله فى آخر ·

---

(١) احياء علوم الدين ، جزء ٢ ص ٥٣ ·

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٣ ·

وبعد أن يتحدث الغزالى عن الفضائل وأحكامهـــا يرى أن السبيل الى تحصيلها وبلوغها هو رياضة النفس مع العبادة ٠

ويرى أن صحة النفس تتأتى من الاعتدال فى مزاج البدن فاعتداله هو صحة له ، والميل عن الاعتدال مرض فيه(١) ٠

وغاية الأخلاق عنده أن ينقطع عن النفس حب الدنيا ، ويرسخ فيهـــا حب الله : فلا يكون شيء أحب الى الفرد من لقاء الله عز وجل ، فلا يستعمل جميع ماله الا على الوجه الذى يوصله اليه ٠ ويرى الغزالى أن النفس بطبيعتها تميل الى الحق وتستلذ به ، أما ميل النفس الى التلذذ بالبـــاطل والميل الى القبيح فهى أمور شنيعة تخرج عن طبع النفس ٠ ويتضح لنـــــا من أقوال الغزالى ، أنه يرى سعادة الانسان النفسية غاية للعمل الخلقى ٠

الغزالى فى تصوفه :

وقد اتبع الغزالى نهج الفلاسفة الاسلاميين قبله كابن سينا والفارابى ، فبدأ بالمنطق ثم ينتقل منه الى الالهام ، ويرى الغزالى أنه توجد ثلاث مراتب فى الايمان واليقين : مرتبة ايمان العامة الذين يصـــدقون ما يسمعونه من أخبار ، ومرتبة معرفة العلماء الذين يصلون اليهـــا بالاستنباط ، ثم مرتبـــة ثالثة وهى يقين العارفين الذين يشهدون الحق دون حجاب ، فالأول سمعوا أن فلانا بالدار وصدقوا ، والعلماء سمعوا فلانا يتكلم فى الدار فاستنبطوا أنه بالداخل ، وأصحاب المرتبة الثالثة دخلوا الدار ورأوا الرجل بأعينهم(٢) ٠

ويؤسس الغزالى رأيه على نظرية وجود العالمين : العالم الظاهر والعالم الخفى ، أى الملك والملكوت ، والعالم الظاهر تدركه الحواس بأعضاء الجسم ٠ أما العالم الخفى فهو ما تدركه النفس ٠ ولكن النفس لا تصل الى هذا الادراك بسبب قيود الجسم ، واذا طهرت من ربطها الجسدية تحررت قواها الادراكية ، ولذلك ــ فى رأى الغزالى ــ فهناك علمان : علم حسى وليد التجربة البدنية والعقل ، وعلم خلقى وليد النسك والايمان ٠ ويرى الغزالى أيضا أن للقلب بابين : باب نافذ الى الخارج والآخر نافذ الى الباطن والى الملكوت وهو الالهام والاستكشاف والوحى ٠

---

(١) احياء علوم الدين ، جزء ٣ ، ص ٦٠ ٠

(٢) دى بور ، المرجع السابق ، ص ٢٢٧ ٠

ويأتي الغزالي بقياس لطيف يشرح فيه فكرته ، كعادته دائما ، فيقول لو حفرنا حوضا في الأرض ، فمن الممكن أن يأتيه ماء من جداول وأنهار على أطرافه وتصب فيه ، ومن الممكن أيضا أن نتعمق في حفر الحوض أو البئر حتى نصل الى مستقر الماء الصافي الذي ينفجر من أسفل الحوض ، ويكون ذلك أصفى وأدوم ، وقد يكون أغزر وأكثر . فالقلب مثل الحوض والعلم مثل الماء ، وتكون الحواس الخمس مثل الأنهار والجداول ، وقد يمكن أن تساق العلوم الى القلب بواسطة أنهار الحواس ، ويمكن أن تسد هذه الأنهار بالخلوة والعزلة وغض البصر ويعمد الى عمق القلب بتطهيره ورفع طبقات الحجب عنه حتى تنفجر ينابيع العلم من داخله .

وانفجار هذه الينابيع عند فرد ، يؤهله الى الحكم في المسائل ببراعة ويرى فيها ما لا يراه غيره . فالغزالي والصوفية يرون أن الزهد وسيلة منتظمة الى بلوغ العلم ، وأن الوجد ينال بعد مدة طويلة تقضى في رياضيات الزهد .

ثم يتكلم الغزالي عن غاية العمل الروحاني وأنه تعديل للأهواء لا تقويضها ويتم هذا العمل بحمل الأعضاء ، عن ارادة ، على انجاز أعمال ملائمة للفضيلة التي يراد اكتسابها كما تولد هذه الفضيلة في النفس بفعل العادة . ويرى الغزالي أن النفس اذا كانت مريضة فيلزمها (شيخ) هو طبيبها الذي يجب أن يعرف كل شيء عن حال المريض المتصوف الروحية ، والشيخ المتبوع الذي يطيب نفوس المريدين ويعالج قلوب المسترشدين ينبغي ألا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف في فن مخصوص وفي طريق مخصوص ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم . وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة واهلكهم وأمات قلوبهم(١) ، (٢) .

ويبين الطريق الى معرفة الانسان عيوب نفسه فيقول ان الله عز وجل اذا أراد بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه ، ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم يرى أحدهم القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عين نفسه . ثم

---

(١) احياء علوم الدين ، الجزء الثالث ، ص ٦١ .

(٢) وكم يطيب للقارىء أن يتمهل قليلا مفكرا في هذا القول ، ومحاولا عقد مقارنة بينه وبين أساليب (العلاج) النفسي اليوم .

يقول ان على من يريد معرفة عيوب نفسه أن يجلس بين يدى شيخ بصير بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات ويحكمه فى نفسه ويتبع اشارته فى مجاهدته . وأن يطلب صديقا صدوقا متدينا فينصبه رفيقا على نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله ، فما ذكره من أخلاقه وافعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة ، ينبهه عليه .

وبعد أن يعرف الواحد عيوب نفسه يتخلص منها عن طريق رياضة النفس ومجاهدتها فيتخلى عن الدنيا ومباهجها تماما (أى يتخلى عن المهلكات ، ويسعى الى الفقر والزهد ومراقبة النفس ومحاسبتها والتفكير فى ذات الله سبحانه وتعالى ، أى يسعى الى المنجيات) .

وبالتخلى عن المهلكات والسعى الى المنجيات يبدأ الفرد طريقه الى درجة الكشف وتتجلى له ذات الله سبحانه وتعالى ، وعندئذ تتم سعادته ، وتتحقق متعته .

آراء الغزالى فى التربية :

أثرت اتجاهات الغزالى الفلسفية والصوفية على آرائه فى التربية تأثيرا واضحا واذا أضفنا الى ذلك الاتجاهات السائدة فى عصره فسوف يتضح لنا مدى عمق آرائه وأهميتها فى سجل التطور التربوى . وكان الغزالى ينزع الى الواقعية فى تفكيره ملقيا أهمية الى سعادة الدنيا وسعادة الآخرة مع حرص شديد على التطهر من الرذائل والتحلى بالفضائل . ولم ينس الغزالى فى غمرة اهتمامه بالدين عنايته بالعلوم الدنيوية كالطب والحساب وبعض الصناعات . وقد عرفنا الغزالى مدرسا فى المدرسة النظامية ثم منشئا لتكية صوفية فى مسقط رأسه حيث تتلمذ عليه عدد كبير من المريدين . وكان دائب السعى لتربية الأفراد تربية صحيحة فبالأفراد تصلح المجتمعات حيث أنه كان يرى أن التربية للانسان قادرة على تكميل ما به من نقص . ويؤخذ على الغزالى أنه لم يهتم مطلقا بتعليم البنت ولم يظهر تحمسا للتعليم المهنى . ويلوح أن نزعته الصوفية قد يكون لها بعض الاثر فى هذا الاتجاه حيث أنه لم يكن من الساعين وراء الأجر لقاء الخدمات .

وقد اهتم الغزالى بالعلم والتعليم بل بلغ اهتمامه درجة جعلته يعتقد أن التعليم الصحيح هو السبيل الى التقرب من الله ، ومن ثم الى سعادة الدنيا والآخرة .

واذا كان للعلم هذه المنزلة فان الغزالى قد استشهد بكلام الله عز وجل وبالأنبياء والمرسلين وغيرهم من ذوى الرأى الحصيف للتدليل على رفعة شأن العلماء ولتوضيح فضيلة العلم والتعلم ، كما انه أكد وجوب التعليم واخلاص المعلمين فى أعمالهم ٠

ويهدف التعليم والتهذيب عند الغزالى الى الكمال الانسانى الذى غايته التقرب من الله ومن ثم الى سعادة الدنيا والآخرة ٠ ويبلغ الانسان كماله باكتسابه الفضيلة عن طريق العلم ، وهذه الفضيلة تسعده فى دنياه وتقربه من الله فيسعد فى آخرته أيضا ٠ على أن الغزالى ذكر فى أكثر من مناسبة أن العلم ينبغى أن يطلب لذاته فهو فضيلة فى ذاته على الاطلاق أى يطلب المتعلم العلم لما للعلم من قيمة ومن لذة ومتعة يستشعر بها طالب العلم ٠

المنهج عند الغزالى :

قسم الغزالى العلوم الى ثلاث مجموعات :

(أ) علوم مذموم قليلها وكثيرها ٠ وهذه لا يرجى نفع منها فى الدنيا أو الآخرة كعلوم السحر والتنجيم وكشف الطوالع ، وهذه تؤدى الى الاضرار بدارسيها والمصدقين لها وقد يتشككون فى الله ، بل قد يستخدمها دارسها فى الشر ٠

(ب) علوم محمود قليلها وكثيرها مثل العلوم الدينية والعبادات وهذه تؤدى الى تطهير النفس والسمو بها عن الرذائل والشرور ، وتقرب الانسان من ربه ٠

(ج) علوم يحمد منها قدر معين ، ويذم التعمق فيها ، وهذه هى التى تتسبب فى ارتباك الناس وتشككهم وقد تؤدى الى الالحاد مثل الفلسفة ٠

ويقسم الغزالى العلوم من حيث أهميتها الى قسمين :

(أ) فروض العين أى العلوم المفروضة معرفتها على كل مسلم مثل علوم الدين وعلى رأسها كتاب الله عز وجل ٠

(ب) فروض الكفاية أى العلوم التى لا يستغنى عنها فى تسيير أمور الدنيا مثل علوم الحساب والطب وبعض الصناعات كالفلاحة والحياكة ٠ ولكن لا تجب على كل الناس ٠

وقد أفاض الغزالى فى الجزء الأول من كتـــابه « احيـاء علوم الدين » بتقسيماته المتعددة للعلوم المختلفـــة ، فتكلم عن العلوم الشرعيـة والعلوم المحمودة · كما قسم الفلسفة الى خمســـة فروع هى الرياضـــيات والعلوم المنطقية والالهيات والطبيعيات والسياسيات والخلقيات ·

هذا وقد قوم الغزالى العلوم وفق معايير واضحة يمكن بيانها كالآتى :

١ ـ مدى منفعة العلوم للانسان فى حياته الدينية وفى دنياه الآخرة من حيث تطهير نفسه ، وتجميل خلقه ، وتقريبه من الله تعالى ، واعـــداده لدنيا الخلود مثل القرآن الكريم والدين ·

٢ ـ مدى منفعتها للانسان من حيث ضرورتهـــا ، وخدمتهـا لعلوم الدين ، مثل علوم اللغة والنحو ·

٣ ـ مدى منفعتها للانســـان فى حياته الدنيـــا ، مثل علم الطب ، والحساب ، والصناعات المختلفة ·

٤ ـ مدى منفعتها من حيث ثقافته ، واستمتاعه بالعلم وتدخلهـــا فى حياته الاجتماعية ، مثل الشعر والتاريخ والسياسة والأخلاق ·

وينظم المنهج الدراسى الذى اقترحه الغزالى بحسب أهمية العلوم الى :

أولا : مجموعة القرآن الكريم وعلوم الدين كالفقه والسنة والتفسير ·

ثانيا : مجموعة اللغة والنحو ومخـــارج الحروف والألفاظ وهى علوم تخدم علوم الدين ·

ثالثا : فروض الكفاية وهى علوم الطب والحساب والصناعات المختلفة بما فيها السياسة ·

رابعا : العلوم الثقافية كالشعر والتاريخ وبعض فروع الفلسفة ·

وقد رتب الغزالى هذه العلوم بحسب أهميتهـــا · ونلاحظ اهتمامه بالعلوم الدينية والخلقية ، كما اهتم بالعلوم الضرورية لحياة المجتمع كما أكد النواحى الثقافية ·

تربية الولد :

وقد أشرت الى اهمال الغزالى تربية البنات واهتمامه بتربية الصبيان · وللغزالى فى كتابه « احياء علوم الدين » آراء كثيرة فيما يختص الصبيان منها:

١ - ان يشغل وقت الفراغ حتى يبعد الصبي عن العبث والمجون ، وخير طرائق شغل هذه الأوقات تعويد الولد القراءة وخاصة قراءة القرآن وأحاديث الأخيار وحكايات الأبرار .

٢ - يتهذب الصبي عن طريق تعليمه الدين وقيامه بالعبادات اللازمة ومعرفته علوم الشرع وتخويفه من السرقة وأكل الحرام ومن الكذب والخيانة والفحش .

٣ - وينصح الغزالي بمراعاة التوسط والاعتدال في تهذيب أخلاق الصبية ، وينصح بابعاد الصبي عن قرناء السوء وبعدم تعويده على التراخي والكسل أو التساهل في التعامل معه ، ويصر على ابعاده عن التدليل والتنعم.

٤ - يهتم الغزالي بموضوع اللعب بالنسبة للصغار فهو وسيلة يعبرون بها عن فطرتهم وينصح بأن يلعب الصبي لعبا جميلا بعد انصرافه من الكتاب ، ولا يرى الغزالي أن اللعب مجرد نشاط تلقائي يقوم به الصغار فحسب ولكن له ثلاث وظائف أساسية . فاللعب يساعد على ترويض جسم الصغير وتنمية عضلاته وتقويتها ، كما أنه يساعد على ادخال السرور في قلب الصغار . وثالثا فهو يريح للصبيه من تعب الدروس في الكتاب .

٥ - ينصح الغزالي بعدم التمادي في عقاب الصبي وبالاقلال من التأنيب والتشهير بمساوىء الصغار .

٦ - طالب الغزالي بتهذيب الفطرة وتعديل الغرائز .. « فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما أو قهرهما بالكلية حتى لا يبقى لهما أثر لم نقدر عليه أصلا ، ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه » ، ولعل فهم هذه الغرائز عند الطفل ضروري لحسن تربيته ولذلك فانه يبين أن هذه النزعات الفطرية تصل شدتها في سن معينة ، وهو يعبر عن هذا بقوله ان بعضها يتكون على مر الزمن . ولذلك فهو يرى ضرورة دراسة المعلم لنفسية الصبية لأنهم ليسوا سواسية بل ان هناك فروقا بين الأفراد .

يضيف الغزالي عديدا من النصائح في تربية الطفل تتعلق بخصائص نموه وتنشئته تمتد الى الكثير من دقائق حياته ، ومنها(١) :

---

(١) حسين أمين : الغزالي - فقيها وفيلسوفا ومتصوفا - ص ٧٥ - ٨٢ .

١ - ألا يستعمل فى حضانته وارضاعه الا امرأة صالحة متدينة ·

٢ - أن يمنع من النوم نهارا فانه يورث الكسل ·

٣ - أن يعلم الولد آداب الأكل ·

٤ - أن يمنع من الفخر على أقرانه بشىء يملكه والده ·

٥ - اذ ضربه المعلم ألا يكثر من الصراخ والشغب ولا يستشفع بأحد ، وينصح الغزالى المعلم المرشد بأن يتحلى بصفات منها :

١ - الشفقة على المتعلمين وأن يجريهم مجرى بنيه ·

٢ - أن يقتدى بصاحب الشرع صلى الله عليه وسلم فلا يطلب على افادة العلم أجرا ولا يقصد جزاء ولا شكرا ، بل يعلم لوجه الله تعالى ·

٣ - ألا يدع من نصح المتعلم شيئا وذلك بأن يمنعه من التصدى لرتبة قبل استحقاقها والتشاغل بعلم خفى قبل الفراغ من الجلى ·

٤ - أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ ·

٥ - أن المتكفل ببعض العلوم ينبغى ألا يقبح فى نفس المتعلم العلوم التى وراءه كمعلم اللغة العربية اذ عادته تقبيح علم الفقه ، أو معلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث والتفسير ·

٦ - أن يقتصر بالتعلم على قدر فهمه فلا يلقى اليه ما لايبلغه عقله ·

٧ - أن المتعلم القاصد ينبغى أن يلقى اليه الجلى اللائق به ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقا وهو يدخره عنه ·

٨ - أن يقرن المعلم عمله بعلمه فلا يكذب قوله فعله ·

* * *

كانت هذه بعض آراء أبى حامد بن محمد بن محمد بن محمد الغزالى ··

عمرها أكثر من ثمانية قرون ، وكأنك وانت تقرؤها وتتمعن فيها انما تقرأ لعالم نفسى معاصر ، أو مرب حديث ، تجد فى بعض أقواله صدى واعجابا لما فيها من حداثة وتشبع بالاتجاهات الانسانية النبيلة والفهم الواعى للنفس البشرية ·

٢ - ابن خلدون

عبد الرحمن بن خلدون ، مفكر اسلامى عبقرى ، سبق أعاظم المفكرين فيما ابتكره من فلسفة التاريخ وفلسفة الاجتماع · وقد سافر كثيرا وتولى مناصب عدة فى المغرب الاسلامى وفى الأندلس ، ثم فى مصر ·

ولد ابن خلدون فى تونس عام ٧٣٢ هـ (١٣٣٢ م) ، وما زال البيت الذى ولد به قائما فى شارع تربة الباى حيث تشغله مدرسة الادارة العليا بالعاصمة التونسية(١) ·

ولابن خلدون مؤلف أذاع اســـمه وخلده كمفكر اجتماعى وفيلسوف ومؤرخ له فلسفة لم يعهدها السابقون وأثرت فى تفكير اللاحقين ، والكتاب هو (كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر) · والكتاب فى سبعة مجلدات ، ولعل أشهرها المجلد الأول وهو ما يعرف باسم (مقدمة ابن خلدون) ·

وفى هذه المقدمة(٢) (وتصل الى حوالى ستمائة صـــفحة) يتكلم ابن خلدون فى الباب الأول فى قسط العمران من الأرض وما فيهـــا من الأقاليم وتأثير الهواء فى ألوان البشر وأخلاقهم واختلاف أحوال العمران من الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار فى أبدان البشر وأخلاقهم ·

ويرى بعض المفكرين فى هذا المبحث شبها كبيرا بما أتى به علماء أوربا فى نظرية النشوء والارتقاء بعد ابن خلدون بخمسة قرون(٣) ·

ويرى أن أهـــل الدين قليلون بين المترفين وسكان المدن والأمصـــار فللخصب أثره السيء · وهؤلاء تهلكهم المجاعات لأنهم اعتادوا الشبع · ويؤمن ابن خلدون بأثر الجوع على صفاء الذهن ، واعداد المتصوفين الى الاتصال بعالم الروح ·

وفى الباب الثانى من المقدمة يتكلم ابن خلدون فى العمران البـــدوى والأمم الوحشية والقبائل ، وما يعرض فى ذلك من المباحث فى طبيعة البداوة

---

(١) على عبد الواحد أحمد وافى : عبد الرحمن بن خلدون ، ص ٢٤٠ - ٢٥٠ ·

(٢) مقتطفاتى من مقدمة ابن خلدون مأخوذة من نسخة المكتبة التجارية ·

(٣) محمد لطفى جمعة : تاريخ فلاسفة الاسلام فى المشرق والمغرب ، ص ٢٢٩ ·

والحضارة ، والفرق بينهما من حيث الأنساب والعصبية والرياسة والحسب والملك والسياسة وغير ذلك ٠

والدارس لهذا المبحث يجد فيه ملامح أصيلة للعلم الذى نسميه اليوم (علم الاجتماع) لأن قوام هذا العلم هو دراسة الظواهر الاجتماعية للكشف عن القوانين التى تخضع لها ٠

وفى الباب الثالث يتكلم ابن خلدون فى الدولة العامة ، والملك والخلافة والمراتب السلطانية ٠ ويعلل ابن خلدون لأسباب السيادة وتشييد الدول ، وكيف تحفظ الامارة ، وشروط السلطة والخلافة وطبائع الملك ومعنى البيعة وولاية العهد ومراتب السلطان ، ودواوين الدولة أو جندها وأساطيلها وشاراتها وقواعد الجند والحرب وأسباب ثبوت الدولة وسقوطها ٠

ويقول ابن خلدون ان نشأة المجتمع بداوة ، وعصابة فى قبيلة ، أما غايته فتأسيس دولة وازدهار حضارة ٠ ونشأة الدولة فتح ، وللفتح أسباب ٠ والسبب الأول هو القوة ولا تتهيأ القوة للقبيلة الا اذا سلمت من آفة الحسب والملاذ ، وسلمت من سيطرة أجنبى ومن انقياده ٠ والسبب الثانى هو هرم الدولة المرموقة ، أما اذا كانت هذه الدولة قوية فلا يتم للقبيلة عز وفتح ٠

ويقول ان للحضارة ظواهر ترافقها ٠ وقد ضمنها الأبواب الرابع والخامس والسادس على التوالى :

أولا : الظاهرة الاجتماعية ٠

ثانيا : الظاهرة الاقتصادية ٠

ثالثا : الظاهرة الثقافية ٠

رابعا : الظاهرة السياسية ٠

وسوف نفصل فيما يلى بعض الشىء ما كتبه فى الظاهرة الثقافية :

العلم والتعليم :

ويرى ابن خلدون أن العلم والتعليم من طبائع العمران ، ويزدهر حيث يعظم العمران ، ثم يتعرض ابن خلدون لتاريخ جميع العلوم والفنون المعروفة فى عصره ، حتى فنون السحر والتلسمات والزيرجة وأسرار الحروف والطب

الروحانى . ثم أفاض فى الكلام عن تاريخ التربية والتعليم عند كثير من الأمم الاسلامية فى المشرق والمغرب موضحا ما ينبغى أن تسير عليه التربية والتعليم فى مختلف مراحل الطفولة والشباب .

ويقسم ابن خلدون العلوم الى أصناف ثلاثة : علوم لسانية ، وعلوم نقلية ، وعلوم عقلية . أما العلوم اللسانية فهى اللغة والنحو والبيان والأدب أو الاجادة فى فنى المنظوم والمنثور . ويرى أن ملكة اللسان العربى تحصل بكثرة الحفظ من كلام العرب . ويرى أنه من النادر أن يجيد فرد واحد فى الشعر والنثر معا ، لأنهما من الملكات ، واذا حصلت ملكة عسر الحصول على ملكة أخرى من نوعها .

وينصح المقبلين على الشعر ، بكثرة حفظه وكثرة نظمه ، ومراجعة المنظوم بالنقد والتنقيح ، وترك الردىء منه ، والعدول عن كثرة المعانى فى البيت الواحد ، ويرى أن صناعة النثر والشعر فى حفظ الألفاظ وتركيبها ، أما المعانى فهى حاصلة لكل ذى فكر .

أما العلوم النقلية فهى تدور حول قراءة القرآن وتفسيره ، واسناد الحديث وتصحيحه واستنباط قوانين الفقه . وتشمل العلوم النقلية : كتاب الله والسنة ومنها يعرف الانسان أحكام الله تعالى المفروضة عليه وعلى أبناء جنسه ، وعلم التفسير ، وعلم القراءات ، وعلوم الحديث ، وعلم أصول الفقه الذى يعنى باستنباط الأحكام (المأخوذة من كتاب الله) من أصولها من وجه قانونى يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط ، وعلم الفقه وهو معرفة أحكام الله تعالى فى أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكراهة والاباحة . وعلم الكلام وهو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الايمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين فى الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة ، وسر هذه العقائد الايمانية هو التوحيد . ثم يضيف ابن خلدون علوم التصوف وتفسير الرؤيا . ويصف علم التصوف بأنه ناتج عن انقطاع بعض الصحابة والأئمة للعبادة واعراضهم عن زينة الحياة الدنيا وترفها . ويصف علم الرؤيا وتفسير الأحلام بأنه معروف منذ القدم فقد فسر سيدنا يوسف عليه السلام الرؤيا ، وأن هذا العلم مبنى على قوانين وقرائن انحدرت للناس منذ القدم .

أما العلوم العقلية فهى ما يهتدى اليها الانسان بفكره من فلسفة وعلوم ، وتشمل هذه العلوم المنطق ، والطبيعيات ، والالهيات ، وعلوم المقادير من عدد وهندسة وهيئة . ثم علم السحر وهو قدرة حقيقية فى بعض

النفوس على التأثير فى عالم العناصر ، وعلم السيمياء وهو علم حادث صدر عند ظهور غلاة المتصوفة وجنوحهم الى كشف حجاب الحس وظهور الخوارق استنادا الى طبائع الحروف · وعلم الكيمياء وهو ينظر فى تحويل المعادن الى ذهب ، ويرى أن هذا لا يكون الا عن طريق السحر والكرامات ، وأن هـذا معاناة بدون طائل · وعلم النجوم وهو يزعم معرفة الحوادث قبل وقوعهـا من معرفة قوى الكواكب وتأثيرها فى عالم العنـاصر ، ويرى ابن خلدون أن علم النجوم صناعة فاسدة لأن تأثير الكواكب فيما تحتها باطل اذ قد تبين فى باب التوحيد الا فاعل الا الله ·

ورتب ابن خلدون العلوم حسب أهميتها للمتعلم فقسمها الى أربعـة أقسام : العلوم الشرعيـة بأنواعهـا ، ثم العلوم الفلسفية كالطبيعيـات والالهيات ، ثم العلوم الآلية المساعدة للعلوم الفلسفية كالمنطق(١) · وقـد هاجم ابن خلدون كلا من الفلسفة والمنطق ·

ثم يعرج ابن خلدون الى نقد طرق التعليم السائدة فى عصره ، فهـو يحدد فصلا فى المقـدمة عنوانه « وجه الصـواب فى تعليم العلوم وطرق افادته »(٢) ويقول فيه ·· « وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهد الذى أدركنـا يجهلون طرق التعليم وافادته ويحضرون المتعلم فى أول تعليمـه المسائل المقفلة من العلوم ويطالبونه باحضار ذهنه فى حلهـا · ويحسبون ذلك مرانا على التعليم وصوابا فيه ، ويكلفون وعى ذلك وتحصيله ، ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون فى مبادئها ، وقبل أن يستعد لفهمها ، فان قبول العلم والاستعداد لفهمه ينشأ تدريجيا ويكون المتعلم أول الأمر عاجزا عن الفهم بالجملة الا فى الأقل وعلى سبيل التقريب والاجمال وبالأمثال الحسية ، ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا بمخالطة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والانتقال فيها من التقريب الى الاستيعاب الذى فوقه حتى تتم الملكة فى الاستعداد ثم فى التحليل ، ويحيط هـو بمسائل الفن واذا ألقيت عليه الغايات فى البدايات وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعى وبعيد عن الاستعداد له ، كل ذهنه عنهـا ، وحسب ذلك من صـعوبة العلم فى نفسه · فتكاسل عنه ، وانحرف فى قبوله ، وتمادى فى هجرانه ، وانما أتى ذلك من سوء التعليم »(٣) ·

---

(١) فتحية سليمان : المذهب التربوى عند ابن خلدون ، ص ٣٧ ·
(٢) الفصل التاسع والعشرون من الباب السادس من المقدمة ·
(٣) المقدمة ، ص ٥٢٢ - ٥٢٤ ·

ومن قول ابن خلدون منذ حوالى ستة قرون نخرج بمجموعة من المبادىء والآراء يلح عليها رجال التربية اليوم ، ومن عبارة ابن خلدون نلمح المبادىء الآتية :

١ ـ ألا يقدم المتعلم فى بداية عهده بالتعليم المسائل الصعبة ، وأن المدرسين يخطئون اذا ظنوا فى هذا مرانا للمتعلمين . ويقول ابن خلدون أن الاستعداد للتعلم ضرورى ، وأنه يتم تدريجيا .

٢ ـ يتعلم الفرد ، البسيط الذى يستطيع عقله تقبله ثم بالتدريج والتكرار يتقدم الى الأصعب باستعمال الأمثال الحسية أو الوسائل المعينة ، وبهذا يتم للفرد تحصيل العلوم والفنون .

٣ ـ يتعرض ابن خلدون الى الآثار التى تنجم عن تكليف المتعلمين فوق طاقاتهم ، وأن ذلك ، وخاصة فى المرحلة التى لم يستعد المتعلم فيها استعدادا عقليا مناسبا ، يؤدى بهم الى الانصراف عن التعليم والتكاسل ، ويلقى اللوم على سوء التعليم .

وفى لغة حديثة نقول أن ابن خلدون منذ ستة قرون تكلم عن الاستعداد للتعلم والشوق والتشويق ، والحوافز ، والتدريب ، والاهتمام والجهد .

ويتكلم ابن خلدون فى تفصيل أكثر شارحا التدرج فى تلقين العلوم للمتعلمين ويقول أنها تحصل من ثلاث تكرارات . وهذا ما يراه ابن خلدون :

١ ـ .. « يلقى عليه (المتعلم) أولا مسائل من كل باب من الفن هى أصول ذلك الباب ويقرب له فى شرحها على سبيل الاجمال . ويراعى فى ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهى الى آخر الفن . وعند ذلك تحصل له ملكة فى ذلك العلم ، الا أنها جزئية وضعيفة ؛ وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله(١) .

ويستخدم ابن خلدون عبارة « على سبيل الاجمال » ولعله يعنى عدم الخوض فى التفاصيل الدقيقة للعلم . وانما يتناول المتعلم فى بداية تعلمه العموميات المجملة التى يستطيع عقله واستعداده تحصيلها . أما عبارة « تحصل له ملكة » ، فالملكة بالفتح تعنى السيطرة على الشىء ، ولعله يقصد

---

(١) المقدمة ص ٥٢٢ .

سيطرة وتملك المتعلم على ذلك العلم أو الفن ٠٠ ولكنه يستدرك فيقول انها سيطرة جزئية وضعيفة ، وان غرضها أنها هيأته لفهم الفن ٠ ولعله يقصد بكلمة « فهم » هنا أن المتعلم أحاط بفكرة عامة عن الفن أو العلم(١) ٠

٢ ـ ٠٠٠ « ثم يرجع به الى الفن ثانية ، فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة الى أعلى منها ٠ ويستوفي الشرح والبيان ، ويخرج عن الاجمال ، ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه ، الى أن ينتهي الى آخر الفن فتجود ملكته ٠

وهذه رتبة أعلى من الرتبة السابقة ، وهنا يستوفي المعلم الشرح ويخرج من الحقائق العامة المجملة الى التفاصيل ، فهو ينتقل من العام الى التفاصيل موضحا أوجه الخلاف ، وعارضا مختلف وجهات النظر ٠

٣ ـ ٠٠٠ ثم يرجع به وقد شد ؛ فلا يترك عويصا ولا مبهما ولا مغلقا الا أوضحه ، وفتح له مقفله ، فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته ٠ هذا وجه التعليم المفيد ٠ وهو كما رأيت انما يحصل في ثلاثة تكرارات ٠ وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه ، وفي هذه المرحلة الثالثة لا يترك المعلم عويصا ولا مبهما الا أوضحه وشرحه حتى يتمكن المتعلم من الفن أو العلم تمكنا يرضى معلمه ٠ وبحكمة واضحة يحترس ابن خلدون فيقول « ان بعض المتعلمين قد يستولون على ملكة الفن في أقل من ثلاثة تكرارات وذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه » ولعل ابن خلدون هنا يتكلم بما نطلق عليه من اصطلاحات عصرنا « الفروق الفردية » ٠

وفي فصل من المقدمة تحت عنوان « كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم » ، يقول ٠٠ « ذهب كثير من المتأخرين الى اختصار الطرق والانحاء في العلوم ، يولعون بها ، ويدونون منها برنامجا مختصرا في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار في الالفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن ، وصار ذلك مخلا بالبلاغة ، وعسرا على

---

(١) انتشرت في الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٧٠ دعوة بدأت منذ حوالي عشر سنوات تنادي بان يتعلم أطفال الرياض والمدارس الابتدائية أساسيات وأصول العلوم ومفاهيمها العامة وأن عقول الأطفال قادرة على ذلك اذا قدمت المفاهيم في أساليب وطرائق تستطيع عقول الأطفال هضمها ٠ ويلوح لنا أن هذا الاتجاه قريب الشبه بما نادى به ابن خلدون

الفهم . وربما عمدوا الى الكتب الأمهات المطولة في الفنون للتفسير والبيان ، فاختصروها تقريبا للحفظ كما فعل ابن الحاجب في الفقه وأصول الفقه وابن مالك في العربية ، والخونجي في المنطق ، ولمثالهم . وهو فساد في التعليم وفيه اخلال بالتحصيل ، وذلك لأن فيه تخليطا على المبتدىء ، بالقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد ، وهو من سوء التعليم كما سيأتي(١) . ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم بتتبع ألفاظ الاختصار العويصة الفهم بتزاحم المعاني عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها ، لأن ألفاظ المختصرات تجدها لأجل ذلك عويصة فينقطع في فهمها حظ صالح من الوقت . ثم بعد ذلك فالملكة الحاصلة من التعليم في تلك المختصرات ، اذا تم على سداده ولم تعقبه آفة ، فهي ملكة قاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة بكثرة ما يقع في تلك من التكرار والاحاطة المفيدين لحصول الملكة التامة .. فقصدوا الى تسهيل الحفظ على المتعلمين فاركبوهم صعبا يقطعهم من تحصيل الملكات النافعة وتمكنها »(٢) .

ومرة أخرى يتناول ابن خلدون مسألة الاستعداد عند المبتدىء وكيف أن هذه المختصرات المخلة تضر بالعلم والفن ، فهي صعبة في فهمها ، ولا يسيطر المتعلم على العلم من مجرد حفظه هذه المختصرات . ويعيب ابن خلدون على الحفظ عند المتعلمين وخاصة حفظهم هذه المختصرات ، لأنها لا تحقق لهم تحصيل الملكات النافعة لهم ولعل ابن خلدون يقصد شيئا أعمق من مجرد أن تكون وظيفة التعليم تحفيظ المتعلم غايات العلم وأن تركز له في هذه المختصرات التي تتكون من ألفاظ قليلة محشوة بالمعاني الكثيرة .

ويتدرج ابن خلدون في فصول لاحقة وسابقة من مقدمته في قسمها الخاص بالتعليم فيوضح لنا أسسا أعتقد أنه سبق بها زمانه بمئات السنين ومن هذه الآراء :

- يكره ابن خلدون كثرة التاليف في العلوم لأن هذا عائق عن التحصيل ، فيقول .. « اعلم أنه مما أضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التاليف ، واختلاف الاصطلاحات في التعليم ، وتعدد

---

(١) هذا الفصل سابق للفصل الذي عنوانه « وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق افادته » وهو الفصل الثامن والعشرون من الباب السادس .

(٢) المقدمة ، ص ٥٢٢ .

طرقها ... » ولعل ابن خلدون يرمى الى التيسير على المتعلمين فى سنيهم المبكرة فلا يضيع الواحد منهم فى غمرة الآراء الكثيرة والاتجاهات المختلفة . وقد يصح أن تكثر المؤلفات فى مراحل التعليم العالية حيث يكون طالبو العلم أكثر استعدادا .

- يرى ابن خلدون عدم تقديم دراسة القرآن للاطفال على غيره من المواد وهى الطريقة التى كانت سائدة فى عصره فيعقد فصلا عنوانه « تعلم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الاسلامية فى طرقه »(١) ، فهو يستحسن ألا يتعلم الطفل القرآن من حداثته وذلك لقلة ادراك الصغار وفهمهم لما فيه من معانى سامية ، ويرى ابن خلدون أن يؤجل درس القرآن وحفظه الى أن يصل الفرد الى سن مناسبة ومستوى من التفكير يجعله قادرا على معانيه .

- يعقد ابن خلدون فصلا عنوانه « الشدة على المتعلمين مضرة بهم »(١) ويقول فى هذا الفصل .. « وذلك أن ارهاف الحد فى التعليم مضر بالمتعلم ، سيما فى أصاغر الولد ، لأنه من سوء الملكة . ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر ، وضيق على النفس انبساطها ، وذهب بنشاطها ودعا الى الكسل . وحمل على الكذب والخبث وهو التظاهر بغير ما فى ضميره خوفا من انبساط الأيدى بالقهر عليه ، وعمله المكر والخديعة لذلك ، وصارت له هذه عادة وخلقا ، وفسدت معانى الانسانية التى له من حيث الاجتماع والتمرن ، وهى الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله ، وصار عيالا على غيره فى ذلك ، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل ، فانقبضت عن غايتها ومدى انسانيتها ، فارتكس وعاد فى أسفل السافلين . وهكذا وقع لكل أمة حصلت فى قبضة القهر ، ونال منها العسف . واعتبره فى كل ما يملك أمره عليه » ... ثم يستطرد ابن خلدون قائلا :

... « وانظره فى اليهود وما حصل بذلك فيهم من خلق السوء ، حتى أنهم يوصفون فى كل أفق وعصر بالحرج ، ومعناه فى الاصطلاح المشهور التخابث والكيد ، وسبق ما قلناه . فينبغى للمعلم فى متعلمه ، والوالد فى ولده ألا يستبدا عليهما فى التأديب »(٢) .

---

(١) الفصل الحادى والثلاثون من المقدمة .
(٢) المقدمة ، ص ٥٤٠ .

وهكذا يعطينا ابن خلدون أسسا رائعة في معاملة الأطفال . ويربط بالتشبيه بين الفرد والمجتمع معطيا مثلا من اليهود الذين فشا فيهم خلق السوء . ويتكلم عن أثر القهر في النفس وكيف يسود حياة صاحبها ويذهب بنشاطها ويدعوه الى الكسل ويحمله على الكذب ، قد اهتم علماء النفس الحديثين بمعاملة الأطفال حتى لا تكون تربيتهم مؤدية الى تكوين عقد نفسية يعانون منها في طفولتهم وكبرهم . ويرى ابن خلدون أن الشدة على الأطفال تدعوهم الى أساليب يطلق عليهم اليوم (انحرافية أو مرضية) كالمكر والخبث والخديعة .

- وينصح ابن خلدون ألا تطول الفترات بين الدروس ، اذ أن في التقطيع مدعاة لأن ينسى المتعلم ما درسه لطول الفترة بين الدرس والآخر . وقال ان مواصلة الدروس تربط بينها وبين بعضها البعض وتساعد على أن تتم عملية التعلم في وقت أقصر ، وبطريقة أصح وتأتي بنتيجة أفضل(١) :

ويقول في هذا الصدد .. « ينبغي ألا تطول على المتعلم في الفن الواحد بتفريق المجالس وتقطيع ما بينها لأنه ذريعة النسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض فيعسر حصول الملكية بتفريقها » .

- ويقول ابن خلدون ان تعليم اللغة - الذي يجب أن يكون أساسا لتعلم سائر العلوم - يبدأ بتعليم الكتابة والقراءة ، ثم نربط الألفاظ بالمعاني ، ثم ينتهي بالتجريد والربط بين المعاني المختلفة وبين بعضها البعض ، ويقول في ذلك : فأولا دلالة الكتابة المرسومة على الألفاظ المقولة وهي أخفها ، ثم دلالة الألفاظ المقولة على المعاني المطلوبة . ثم القوانين في ترتيب المعاني للاستدلال في قوالبها المعروفة في صناعة المنطق . ثم تلك المعاني مجردة في الفكر اشراك يقتضي بها المطلوب بالطبيعة الفكرية بالتعرض لرحمة الله » .

ومن رأي ابن خلدون أن الفرد يستطيع التعبير عن آرائه بطريقة أحسن وأفصح اذا استخدم لغته الدارجة التي يعرفها ويجيدها . وبها يستطيع أن يصب معانيه ومشاعره وأفكاره في ألفاظ . وينصح لذلك بتعليم اللغات الدارجة الى جانب اللغة العربية الأصيلة وهي لغة مضر .

---

(١) فتحية سليمان : المرجع السابق ، ص ٥٥ .

- ويفرق ابن خلدون بين التعليم النظرى والتعليم العملى(١) فالتعليم النظرى أرقى من العملى لأنه يحتاج الى استعمال الكتابة ... والكتابة من بين البضائع الأكثر فائدة وهو يقصد فائدة للنمو العقلى . والتعليم النظرى أرقى لأن فيه انتقالا من ... « الحروف الخطية الى الكلمات اللفظية فى الخيال ، ومن الكلمات اللفظية فى الخيال الى المعانى التى فى النفس فتحصل ملكة الانتقال من الأدلة الى المدلولات » . أى أن التعليم النظرى يحتاج الى تكوين مدركات كلية مجردة ، والى تبين هذه المدركات فى شتى الشئون .

* * *

أما اذا أردنا أن نعرف قيمة هذه الآراء - وغيرها كثير - التى ساقها ابن خلدون ، فلابد أن نسجل بالفخر والتقدير أن تاريخ ابن خلدون يتميز بالدقة والأصالة العلمية فقد وصف أحد علماء الغرب فى العصر الحديث واسمه دوزى رواية ابن خلدون عن تاريخ النصارى فى أسبانيا بأنها « منقطعة النظير ، ولا يوجد فى بحوث علماء الغرب المسيحيين فى العصور الوسطى ما يستحق أن يقارن بها ، وأنه لم يوفق أى عالم من هؤلاء الى تدوين التاريخ عن هذه الدول فى مثل الدقة والوضوح اللذين يتسم بهما تاريخ ابن خلدون »(٢) .

أما عن فلسفة ابن خلدون الاجتماعية فقد اهتم الغربيون بها كل الاهتمام فيقول دى بور الهولندى أن ابن خلدون أول من حاول أن يشرح بافاضة تطور المجتمع وتقدمه لأسباب وعلل معينة(٣) . كما يقول الاجتماعى لدفيج جمبلوفتش أن ابن خلدون أول من اهتدى الى نظرية الأجيال الثلاثة الخاصة بنهوض الأسر وانحلالها قبل أن يعرضها أوتوكار لورنتس فى أواخر القرن التاسع عشر . ويذكر جمبلوفتش أن أقوال ابن خلدون عن الوسط ومؤثراته يدل على أنه عرف (قانون التشبه بالوسط) قبل أن يعرفه داروين بخمسة قرون . ويبدى الاجتماعيون اعجابهم فيما يقوله ابن خلدون عن تشبيه الانسان بالحيوان فى الخضوع للقوانين الاجتماعية العامة مما يدل على أنه عرف مبدأ « وحدة المادة » قبل أن يعرفه هيجل .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦١ .
(٢) محمد عبد الواحد وافى ، المرجع السابق ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .
(٣) محمد عبد الله عنان ، المرجع السابق ، ص ١٥٠ - ١٥١ .